الفصل الأول

تقييم الفكر الاسلامى فى مرحلته الأولى

فى جانب الفقـــه :

١ — ان الفكر الاسلامى فى جانب التفقه يدل على قدرة وبراعة عقلية ، ويدل أيضا على أصالة فى الفهم ورجاحة فى الوزن ، وعلى خطوات فسيحة فى البنـــــاء .

ولو لم يصر التفقه الى تعصب ، ولو لم تصل تلك الأصالة فى الفهم الى تقليد جارف — لما وقفت حركة البناء الفقهية ، ولما وقعت بعد هذا الوقوف تلك الانفصالية ، فى حياة المسلم : بين سلوك يأخذ مجراه تحت تأثير ظروف الحياة نفسها ، وبين الاسلام الذى تجمدت روافده بحيث لم تعد تسير مع السلوك جنبا الى جنب ، أو بحيث لم تعد تمنح الانسان المسلم المساعدة فى التوجيه فى سلوكه وفى طبع هذا السلوك بطابع اسلامى .

هذه « الانفصالية » دعت بعض علماء المسلمين الى أن يطلبوا الى المسلمين العودة الى أوضاع الحياة قبل هذه الانفصالية والوقوف عندها ، وبذلك تنقطع صلتهم بقوانين الحياة فى التطور وفى البقاء للأصلح فى ملاءمته نفسه مع أحداث الحياة .

وهؤلاء هم الذين يصفون الجديد بأنه « بدعة » . وهذا خلف ، وضد حياة الانسان نفسه .

بينما هذه الانفصالية ذاتها دعت بعض مؤرخى الأجانب للحكم على الفقه الاسلامى بالافلاس ، أو بالتأزم . وكلاهما دليل على أن امكانياته محدودة ،

obeikandl.com

وانها انتهت ، واستنفدت عند حد معين فى تاريخ الجماعة الاسلامية ، ولم تستطع بعد هذا الحد المعين الآن أن تقدم المعنوية الضرورية .

هذا وذاك فى حين : أن نفرا ثالثا من علماء المسلمين لم ير واحدا من الرأيين السابقين ، بل يرى أن هذه « الانفصالية » التى وقعت منشؤها : طغيان التعصب للمذاهب ، وعدم الانفكاك عن التبعية المطلقة . فحال هذا الطغيان دون اتخاذ موقف حر يعود بالاسلام الى مرونته . وبذا يمكن له أن يستوعب الجديد من الأحداث . ويمكن له أن يستمر كذلك فى تقديم المعونة التى كان يقدمها فيما مضى ، يوم أن كان هنـــاك موقف حر أو ما يسمى « بالاجتهاد» .

... وهذا النفر الثالث هو صاحب التفكير الاسلامى فى مرحلته الثانية وهى مرحلة اعادة بناء المجتمع من جديد .

* * *

فى جانب التفلسف :

٢ ــ أما الفكر الاسلامى فى جانب التفلسف فيقوم على أنه فكر حاك ومردد للفكر الدخيلة ، وبالأخص الاغريقية منها ، دون أن يقدم جديدا ، أو حتى دون أن يهضمه .

وما هذه المعارضة للفكر الاغريقى التى يتزعمها الغزالى الا آية على أن العقلية الاسلامية لم تفهم صنعة العقل الآرى ، ممثلا فى التراث الفكرى اليونانى .

وهذا الرأى ينادى به بعض علماء الغرب من المستشرقين فى نقـــدهم للفلسفة الاسلامية .

ولكن فى واقع الأمر : عدم بناء الفكر الاســـلامى جديدا فى الفلســـفة الاغريقية الالهية ، أى عدم اضافته حلقات الى ما خلفه الاغريق فيها :

لا يعود الى وقف العقلية الاسلامية عند حد الحكاية والتقليـــد دون الأصالة والبناء .

كما لايرجع الى عدم هضم هذا التراث الفكرى ،

بل يرجع الى أنه قد تكشف لهذه العقلية الاسلامية بعد الدراسة أن هناك فجوة بين بعض فكر هذا التراث وبين مبادىء الاسلام .

فالذين احتضنوا هذا الفكر من المسلمين استنفدوا صنعتهم العقلية فى التوفيق والملاءمة بين الجانبين ،

والذين رفضوه منهم قصروا تفكيرهم على اظهار نقائصه وبيان بطلانه من وجهة المقاييس العقلية فى المرتبة الأولى ، ثم من وجهة الاسلام فى المرتبة الثانيـــــة .

فكتاب : « مقاصد الفلسفة » للغزالى الذى يجعله تمهيـــدا لكتابه : « تهافت الفلاســفة » .. يوضح فى غير لبس : مدى فهم الغزالى للفكر الاغريقى ، ثم مدى فهمه أيضا لعملية التوفيق التى قام بها المسلمون .

فتناقض الفكر الاغريقى فى كثير من آرائه لبعض تعاليم الاسلام وجهت العقليات الاسلامية وجهة أخرى ، غير وجهة البناء والاضافة . وهى وجهة التوفيق ، أو النقد .

ولو أن العقلية الاسلامية لا تملك استطاعة التفكير الفلسفى لما كان لها انتاج يؤثر : سواء فى عملية التوفيق ، أو فى عملية النقد . فكلتاهما عمليتان تدلان على العقل الذى يباشرهما عقل فلسفى يستطيع البناء ، ان دعت ظروف الفكر الى البناء .

ويؤيد ذلك : أن العقل الاسلامى نفسه فى مجال آخر غير مجـــال « الميتافيزيقا » والالهيات ، وهو مجال الرياضة والطبيعة — استطاع أن يكون عقلا بنائيا ومنتجا أصيلا .

لانه فى هذا المجال الآخر لم يجد الحرج الذى وجده فى المجال الالهى . وهو الحرج الناشىء عن القيمة الذاتية للتعاليم الاسلامية ، التى أدركها وبرهن على صحتها قبل نقل الفكر الدخيل الاغريقى الى اللغة العربية .

فكان من الطبيعى أن يفهم الفكر الدخيل فى ضوء تلك القيمة الذاتية

للتعاليم الاسلامية ، وكان من الطبيعى كذلك قبل البناء فى الفكر الفلسفى الدخيل : أن يوفق ، أو ينقد هذا الفكر ، عندما تبدو معارضته لشىء التزمه عقلا قبل ذلك ، وهو تعاليم الاســـلام .

ويقول WILHELM DILTHEY فى : كتابه Gésammelte Schriften (فى الجزء الأول صـــفحة٢٩٢ ـــ طبع لبيتسج سنة ١٩٣٣) :

« وقد استخدم المسلمون المصطلحات الفلسفية اليونانية فى علم الكلام ، واستخدموا فى تنظيمه المنطق القديم وعلم المقولات . وقد تركز محيط الأفكار حول التصورات الدينية وجذبت نحوها نتفا من العلم اليونانى وأخضعتها لها .

وقد تغير الأمر لما اكتشف العرب ـــ كمركز ثان للعمل العقلى ـــ علوم اليونان الطبيعية ، وابتدأوا يبنون حولها دائرة من المعارف الطبيعية .

وقد أثرت حركة ترجمة العلوم الطبيعية الى العربية فى الاستمرار فى بناء العلوم الواقعية التى نشأت فى مدرسة الاسكندرية ، وحافظت هذه المدرسة على عدم الخلط فيها ، كما كانت ..

والغرب مدين للعرب بدور الوساطة فى نقل نظام الأرقام الهندية ، وفى توسيع نظام الجبر اليونانى » (ص ٢٩٣ ـــ ٢٩٤) .

« وبلا شك قد هيأوا الأوامر بتقدمهم الخاص الى نشأة العلم الطبيعى الحديث :

فتوسعوا فى الكيمياء عما وصلت اليهم من مدرسة الاسكندرية .

وأوجدوا عدة مستحضرات كيماوية .

كما تقدموا فى الرياضة واستخدموها كآلة للتقدير الكمى .

ومايقوله « ديلتاى » هنا يؤكد ماذهبنا اليه ، من أن : عدم بناء الفكر الاسلامى فى الجانب الالهى فى الفلسفة الاغريقية يرجع الى التباين بينها

وبين تعاليم الاسلام ، وليس الى ضعف العقلية الاسلامية وعدم استطاعتها التفلسف .

على أن هناك شيئا آخر وراء البناء أو وراء عدم البناء ، من العقل الاسلامى ، فى جانب الفكر الاغريقى ، هو :

أن تفلسف المسلمين فى الجانب الالهى الاغريقى الذى انحصر فى التوفيق والملاءمة بين آراء الاغريق من جانب وتعاليم الاسلام من جانب آخر ، لم يفد الاسلام كدين ، كما لم يترك العقل الانسانى يدرك الفكر الاغريقى على حقيقته .

... لم يفد الاسلام كدين ، لأن : معتقدات الدين فى جانب الله سبحانه وتعالى ، بشرحها شرحا فلسفيا اغريقيا أو بامالة الفكر الاغريقى نحوها ومحاولة صهر الطرفين فى وحدة واحدة .. عقدت هذه المعتقدات ، واضحى فهمها بعد التعقيد أو بعد تفلسف العقيدة ، وقفا على طبقة من الناس خاصة ، وهى طبقة العقليين الذين دربوا ذهنهم تدريبا خاصا على فهم المشاكل الفلسفية الالهية القديمة ومشاكل القرون الوسطى :

ولم تترك هذه الملائمة العقل الانسانى يدرك الفكر الاغريقى على حقيقته . لأنه صبغه ، بعد التفلسف القائم على التوفيق ، بصبغة دينية ، منحته نوعا من القداسة تحول دون نقده ورؤيته كما هو . كما أضافت اليه عناصر دينية أخرى ليس من السهل فصل بعضها عن بعض .

وبذلك بقى هذا الفكـــر فترة من الزمن يردد على هذا النحو من الاشـــتباك .

* * *

فى جانب التصوف :

٣ ــ أما التصوف الاسلامى فقد نال نوعه المتأخر استحسان الغرب من جانب ، وسخط المسلمين عليه من جانب آخر .

كان التصوف زهدا . فأصبح ضربا من ضروب الفلسفة . ثم مال الى « وحدة » البراهمية و « حلول » المسيحية .

وهذا المآل الذى آل اليه هو موضـــع الاختلاف فى التقدير ، بين الاستحسان والتجريح .

اما استحسان علماء الغرب له لأنه يميل بالاسلام نحو المسيحية . فيبعد الاسلام عن مجال الحياة العامة . ويقصره على الدربة النفسية ومايسمى بالصفاء الروحى للفرد . فوق أنه يقرب الله بفكرة الحلول الى الانسان على نحو تأليه عيسى المسيح وجعله طبيعة مزدوجة ، الهية الباطن ، وانسانية الظاهر .

وهذا ماينشده الغرب ويبتغيه من الدين . اذ الدين فى نظره يعالج نفس الفرد ويضع أمامه المثل الأعلى للاقتراب منه .

هكذا يشرح الدين فى نظر الغرب اقتباسا من وضع المسيحية .

اما المسلمون فيرون أن فكرة الحلول تنقض رسالة الاسلام فى وحدة الله وتنزيهه عن الحق وصفاته . وهى لكونها تستتبع فكرة « التناسخ » تجعل من الله موجودا منتقلا . وذلك يتنافى مع بعض صفاته تعالى كالبقاء والقيام بالنفس ،

فالمسلمون يرون الصوفية المتأخرة ضربا من تحريف الاسلام الىالمسيحية المحرفة ، وهى مسيحية الحلولية .

* * *

فى السياسة ونظام الحكم :

٤ ــ أما تفكير المسلمين فيما يتصل بالامامة أو الرياسة فى الجماعة الاسلامية ففضلا عن كونه اتجه الى اتجاهين متقابلين تماما ، مما ينبىء عن أن العاطفة الانسانية كان لها أثر كبير فى تبلور الاتجاهين ، فانه صار :

الى انحراف واضح ، فى اتجاه ،

والى قسوة مرة واضحة فى الاتجاه الآخر .

أما الانحراف فقد صاحب الاتجاه الذى يرى وجوب حصر الامامة فى عائلة خاصة . فقد صار هذا الاتجاه ــ لا الى القول « بعصمة » الامام فقط مما يجعل الامام فى منزلة الرسول وفوق مستوى الانسان العادى ــ

بل الى اعتقاد ان روح الله تحل فى الامام ، وأن روح الله تنتقل من امام اختفى الى امام وجد وانبثق .

وهذا هو منطق : الحلول ، والتناسخ . بل صار الأمر أشد انحرافا حيث يجعل الامام الحق المطلق فى الراى الذى يستفتى فيه . ويعتقد بعد ذلك من اتباعه بأن رأيه حجة ، لاتقل عن حجية القرآن نفسه .

وأما القسوة فقد صاحبت الاتجاه المقابل الذى لايوجب حصر الامامة فى بيت معين . بل تكون حيث يوجد خيار المسلمين ، فقها وتدينا وخدمة للاسلام والمسلمين .

فقد قسا أصحاب هذا الاتجاه فى الحكم على أصحاب الاتجاه السابق ، حتى على أولئكم منهم — وهم الكثرة الغالبة — الذين لم يصيروا الى نفس المصير الذى صارت اليه قلة منهم . وهم المسلمون : بغلاة الشيعة ، أو بمتطرفى التشيع .

والقسوة فى الحكم صورة عامة على أصحاب الاتجاه وفيهم المعتزلة ، ادت الى فجوة كبيرة فى الجماعة الاسلامية بحيث أصبح العداء بين الطرفين تقليدا ومذهبا .

وبذلك كاد الاسلام ينقسم الى قسمين ، أو الى « دينين » :

دين « السنة »

ودين « الشيعة » .

والسنة هم اعداء الشيعة .

والشيعة هم أعداء السنة .

وهذا غلو من الطرفين : فليس أهل السنة هم أرباب مذهب معين ، بل هم أهل « الحق » . والحق ليس دائما فى طرف . وبذلك ، قد يكون الشيعى من أهل السنة على هذا الأساس . كما قد يكون من يعرف بالسنى تقليدا بعيدا عن الحق فى غير موضع مما راى .

يقول ابن قيم الجوزية فى كتابه شفاء العليل (١) :

واهل السنة ، وحزب الرسول ، وعسكر الايمان لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء .. لا مع الأشاعرة ، أو الرافضة ، أو غيرها — بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه . فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه ، وهم براء من باطلهم .

فمذهبهم (أى مذهب أهل السنة) جمع « حق » الطوائف ، بعضه الى بعض ، والقول به ، ونصره وموالاة أهله من ذلك الوجه . ونفى باطل كل طائفة من الطوائف ، وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه .

فهم حكام بين الطوائف . ولا يقابلون بدعة ببدعة . ولا يردون باطلا بباطل . ولايحملهم شنآن قوم على ألا يعدلوا فيهم . بل يقولون فيهم الحق ، ويحكمون فى مقالاتهم بالعدل والله سبحانه أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف، فقـــال :

« فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولاتتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم » (٢) .

ان الخلاف حول الامامة أو حول نظام الحكم والرياسة فى الدولة نشأ شخصيا وارتبط فى أذهان المتخاصمين والمختلفين بشخص معين أو أشخاص معينين . وانتهى أمره الى الامعان فى الارتباط بالشخص .

فشخص الخليفة قبل « على » كان محل خلاف فى التقدير والأحقية .

و « على » وسلسلته فى النسب كانت محل خلاف فى التقدير والأحقية .

... بينما الاسلام تركزت رسالته الأولى فى دفع المؤمنين به نحو تجاوز الأشخاص الى المبادىء والسمو بهم من النظرة الى الكائنات المحسوسة الى النظرة الى الله وحده ، الذى **« لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (٣) .**

---

(١) طبع الخانجى ص٥١ (٢) الشورى : ١٥

(٣) الأنعام : ١٠٣

ان هذا الخلاف وما انتهى اليه كاد أن يرجع المسلمين الى عهد الوثنية التى حاربها الاسلام أشد محاربة . والوثنية من شأنها أن تفرق بين عابدى الوثن . لأنه غير محدود ، وغير محصور ، بل مايؤلهه الوثنيون كثير متعدد بالشخص وبالمكان .

فمصير هذا الخلاف ،

وكذلك ما انتهى اليه أمر الفقه الاسلامى من عصبيات ممقوتة ، وانصرافه عن مصدر الاسلام نفسه وهو القرآن الكريم ،

وتركيز التقدير والتقديس للمؤلفين وللمؤلفات دون المبادىء والتعاليم القدسية كما احتواها كتاب الله ،

ثم ما أتى به الفكر الفلسفى من تعقيد فى العقيدة ،

وما أتت به الصوفية المتأخرة من تحريف وتحويل الاسلام الى مسيحية بوذية ،

... كل هذا ، فضلا عن انه فرق المسلمين الى شيع واحزاب ، وندوات ومجالس ، آل بالاسلام الى نحو لم تأت به الرسالة الالهية ، وحول غايته الى غاية أخرى .

فبعد أن كانت غايته :

جمع الكلمة وقوة المؤمنين ،

ودفع السير قدما فى الحياة ،

...أصبحت غايته : ما آل اليه :

من تفريق الكلمة وضعف المؤمنين به ،

ودفع الى الركود والاستذلال والاستجداء من أجل العيش فى الحياة ، وأصبحت رسالة المسلمين : أن يعيشوا على أى وضع ، بدل ان كانت رسالتهم جهادا فى سبيل الله ، وهو سبيل الحق وخير الانسانية :

وبهذا المصير تمهد الجو لظهور فترة أخرى من فترات التفكير الاسلامى .

ولابد أن تكون فترة مغايرة للفترة الماضية :

فى طابعها ،

وبواعثها ،

وغايتها .

وعلى أثر هذا نشأت فترة التفكير لاعادة بناء المجتمع الاسلامى ، ورده الى وحدته وقوته .

* * *

obeikandl.com